مداخلة بعنوان:

نحو مقاربة حضارية بديلة للمقاربات السوسيولوجية
مشكلة الحضارة عند مالك بن نبي أنموذجا

الأستاذ:لعربي أحمد الأستاذ نشادي عبد القادر
"جامعة أدرار/ المدية"

مقدمة:

إن بن نبي، وإن لم يخصص لعلم الاجتماع اهتماما مفردا، فقد جاء حديثه عن موضوعه وقضاياه في شكل توجيهات وآراء عامة، تناقش السياسة التنظيمية للدولة في مرحلة الاستقلال، كما أن المفكر لم ينكب على دراسة الإشكالات النظرية والمنهجية، ولا حتى المذهبية التي أثيرت حول هذا الحقل المعرفي.

ومما سبق يتضح أن موقع علم الاجتماع، كغيره من فروع العلوم الاجتماعية، تعد عند بن نبي أداة معرفية، لها خصوصياتها المرتبطة بالمجال الحضاري والمميزات الثقافية، وما يضم ذلك من أبعاد تاريخية ومؤثرات اجتماعية، فالمفكر يستدل بالنتائج التطبيقية والمقولات النظرية استئناسا أو تعليلا فيما تعلق بعلم الاجتماع المعاصر أما الوجه الآخر لعلم الاجتماع في أعمال بن نبي، وهو ذلك الوجه الأصيل، وأقصد هنا إسهاماته النظرية وتحليلاته السوسيولوجية، فذلك ما نسعى إلى إبرازه وبلورته ومناقشته، وأحسن دليل على هذا المنحى الذي طبع أعمال بن نبي واهتماماته الفكرية، أنه كان يدير في الجزائر حلقة فكرية منذ الاستقلال موضوعها "سوسيولوجيا العالم الإسلامي".

1-2- إسهامات بن نبي في علم الاجتماع التاريخي:

أ)- علم الاجتماع التاريخي:

نشأة علم الاجتماع تاريخية أو "تاريخانية" بتعبير بدون وبور يكو اللذان يقولان بهذا الصدد: "يمكن تعريف التاريخانية في المعنى الضيق، بصفتها النظرية أو الرؤية التي تعتبر أن التغيير الاجتماعي أو التطور التاريخي يخضع لقوانين التعاقب غير المشروطة التي تعطي التاريخ وجهة أو اتجاها (...) وفي هذه الحالة تكون التاريخانية أو النشوئية مترادفين عمليا، يكمن الفرق في كون الاستناد إلى التطور البيولوجي (المعرف به أنه تقدم التعقيد يكون مباشر في الحالة الثانية أكثر من الحالة الأولى) "،(01)(ص128) وما يطلق عليه

الباحثان هنا مصطلحي التاريخانية (النزعة التاريخية) والنشوئية (النزعة التطورية) هو مجمل الإسهامات النظرية التي قدمها مؤرخون ومنظرون سوسيولوجيون فيما يسمى علم الاجتماع التاريخي*.

يمكن القول علم الاجتماع التاريخي بأنه يمثل ذلك التمفصل الذي يربط علم الاجتماع والتاريخ، بحيث أن وحدة الدراسة هنا هي: الحضارة بحسب التعاريف المتباينة لهذا المفهوم، أما من الناحية المنهجية فإن علم الاجتماع التاريخي يقوم على مقاربتين: (02)(ص121)

أ- التسليم بوجود قوانين للتاريخ أو قوانين للتغير، تسمح نظريا بتفسير ظاهرة خاصة بديهيا.

ب- إظهار تضامن منطقي بين ظاهرة اجتماعية من طبيعة عامة، مع الظاهرة التي نرغب في تفسيرها.

على ضوء ما سبق، كيف وظف بن نبي أطروحة "الدورة الحضارية"، وما هو إسهامه في علم الاجتماع التاريخي؟

ب)- مفهوم الدورة الحضارية عند بن نبي:

يمكن الاطلاع على الأطروحة الأساسية لبن نبي حول تصوره الخاص لفلسفة الحضارة في معظم مؤلفاته، وإن كان يعالج فكرة "الدورة الحضارية" بطريقة أكثر عمقا في كتابيه: "شروط النهضة"، "ميلاد مجتمع"، أين فصل في المؤلف الأول، الإطار التصوري العام لبلورة مشروع حضاري بديل، وفي الثاني حاول التأصيل للقضية من وجهة نظر سوسيولوجية، ينطلق بن نبي من تصنيف الأنثربولوجيين للمجتمعات إنسانية، مجتمعات بدائية وأخرى متقدمة*، أو بتعبيره: مجتمعات طبيعية وأخرى تاريخية، ولكنه يخالفهم في تحديد المفهومين، فهو يرى أن ظاهرة الاجتماع في كلا الصنفين، تختلف جوهريا، فالمجتمع الطبيعي هو مجتمع جامد تربط بين أفراده علاقات فطرية (أولية) مثل التي توجد في عالم النحل، بل يذهب إلى أبعد من

ذلك، معتبرا أنها ليست مجتمعات بالمعنى العلمي، والمجتمع عنده يجب أن تتوفر فيه الشروط التالية: "الحركة يتسم بها المجتمع الإنساني وإنتاج أسباب هذه الحركة وتحديد اتجاهها".(03)(ص17)

فالحركة هي المحدد الأساسي لوجود مجتمع بالمعنى الصحيح، والمجتمع يقوم بحركة تاريخية تتم في شكل تعاقب دوري على ثلاثة مراحل: الانطلاق، الحضارة، الأصول، وعليه فالحضارة هي وحدة تصنيفية وتحليلية لدراسة المجتمعات، بيان ذلك على النحو التالي:

وحدة تصنيفية لوصفها الطريقة التكوينية للمجتمعات التاريخية، وهي هنا المجتمعات الجغرافية (مثل الولايات المتحدة)، والمجتمعات الإيديولوجية (الاتحاد السوفياتي)، وإن كان المفكر لا يولي اهتماما كبيرا لهذا التقسيم في تحليلاته، على خلاف الخاصية التحليلية، حيث أن تحليل المظاهر الأساسية للمجتمعات في إطار مراحلها الحضارية: ما قبل الحضارة، وما بعد الحضارة هي مركز اهتمامه، وتمكن أهمية الخاصية التحليلية للحضارة في أنها تنبهنا إلى الفروق الأساسية بين مجتمع ما قبل الحضارة ومجتمع ما بعد الحضارة*، هذه الفروق التي يميل الدارسين إلى تجاهلها، ومن الانعكاسات السلبية الجهل بطبيعة المجتمعات الذي انجر عنه تعثر مشاريع النهضة ومخططات التنمية، إذ أن نوع العلاقات المكونة للمجتمع والخصائص الشخصية للأفراد تختلف في المجتمعين تماما، أو بتعبير المفكر فإن الشروط النفسية الزمنية لميلاد مجتمع متغايرة في كلا المرحلتين.

وإذا كان بن نبي لا يعين تعريفا محددا لما يقصده بالشروط النفسية الزمنية فإنه يمكن فهم مقصده من خلال شروحا ته لأطروحاته بتطبيقها على الحضارة المسيحية والحضارة الإسلامية،(04)(ص37) ويمكن أن نلخص ذلك في شرطين: الأول يستوجب وجود مركب لعناصر الحضارة الثلاث: الإنسان، الوقت، التراب، أي الفكرة الدينية والثانية هي قابلية الإنسان للتغيير، وهذا الأمر الأخير يتيسر في مجتمع ما قبل الحضارة أكثر مما يتيسر في مجتمع ما بعد الحضارة، فالمجتمع الخارج من الحضارة تكون مكوناته (عوالم

الأشخاص والأفكار والأشياء) مثقلة برواسب مرحلة الأفول (الفوضى والتفكك)، وأفراده مثقلين بالرواسب السلبية لعالمه الثقافي، أما في الحالة الأولى (الأولية) فالمجتمع يكون عذريا والفرد خصبا مستعدا للانطلاق حالما يتبنى فكرة دينية (أي فكرة موجهة).

هذا الحدث يدخل المجتمع في الحركة التاريخية، بحدوث ثورة في عالم الأشخاص، تغير فيهم "معالم الذات" وتتكون النواة الأولى لشبكة الصلات الشخصية، هذه الأخيرة تنمي بدورها عالم الأفكار الذي يصنعه الأشخاص على منوال الفكرة الأولى، وفي مرحلة تالية يظهر تأثير عالم الأشياء على ساحة الحياة الاجتماعية، فيكتمل ملمح المجتمع بتشكل عالم رابع هو شبكة العلاقات الاجتماعية الناظم لتأثير العمل العوالم الثلاثة، هذا في البدء، ولكن حالما تكتمل معالم طور الانطلاق (مرحلة الروح) فإن العوالم الثلاث "تتوافق في عمل مشترك تأتي صورته طبقا لنماذج إيديولوجية من عالم الأفكار، يتم تنفيذها بوسائل من عالم الأشياء، من أجل غاية يحددها الأشخاص".(03)(ص27)

ولما كان التغير سنة الله تعالى في خلقه، فإن بن نبي يحلل أسباب هذا التغيير ويرجعه إلى مرحلة العقل (مرحلة الحضارة)، حيث يكون العقل هو القيمة الاجتماعية الأولى، والموجه لمظاهر الحياة الاجتماعية، ومن خصائص العقل، حسب بن نبي، أنه عاجز عن ضبط الغرائز وتوجيه الطاقة الحيوية، وبذلك تستولي بدورها على عملية التوجيه وبذلك يصل المجتمع إلى مرحلة الأفول، وهي توافق خروج المجتمع من دائرة الحضارة، وتدحرجه إلى مصاف المجتمعات ما بعد الحضارية.

2) المقاربة السوسيولوجية في فكر مالك بن نبي:

يشكل مفهوم الحضارة عند بن نبي مفتاح قراءة فكره، لا بل وغايته التي ناشد تحقيقهـــا خاصـــة في كتاباته الصادرة منذ انتقاله إلى المشرق العربي، إذ تخلى شيئا فشيئا عن أولية الفكرة الدينية أو نموذج المجتمع الإسلامي في الصدر الأول من تاريخ الحضارة الإسلامية، كأساس وغاية، ليستبقيه كتأسيس نظري لنســـقه الفكري أو للدورة الحضارية، ليدمج الدين فيما بعد بطريقة غامضة في المبدأ الأخلاقي وفي الذوق الجمالي، وهما عنصرين من أربعة عناصر للمركب الثقافي. أما أحسن دليل، شكلي، على مركزية مقولة الحضارة في فكر بن نبي، فهو أن إصدارات المفكر كلها جاءت تحت تسمية "سلسلة مشكلة الحضارة".

ولكن إضافة إلى مفهوم الحضارة فقد وظف بن نبي مصطلحين مركزيين هما المجتمع والثقافة، فكيـــف تمثل بن نبي الحضارة وما هو استعماله لثقافة وما وجه العلاقة بينهما؟ وما هو موقع مفهوم المجتمع، كمفهوم سوسيولوجي في تصورات بن نبي، باعتباره عول كثيرا على مقولات ونتائج علم الاجتماع في الاســـتدلال والتعليل؟

2-1- الحضارة والثقافة والمجتمع: المحددات الرئيسية للمقاربة السوسيولوجية عند بن نبي:

إن محاولة صياغة مقاربة سوسيولوجية من فكر بن نبي، بما يتطلبه هذا العمل من شـــروط أكاديميـــة للتنظير الاجتماعي الذي يتطلب تساند منطقي لمكوناته وصياغة واضحة للمفاهيم ودقة في تعريفها وصرامة في ضبط العلاقات بين المفاهيم وبين القضايا ...، تمرين تحول دون سهولته ونجاحه عوامل عدة بالإضافة إلى مخاطر الانزلاق في مطبات التعسف والاختزال، فإن طبيعة فكر بن نبي ونوعية أعماله ولغة تحبير هذا الفكر من تلك العوامل المباشرة لصعوبة هذا العمل، والتي يستحسن تحديد أهمها وإعادة التذكير ببعضـــها، قبـــل الخوض في اقتراح فحوى هذه المقاربة ومناقشة مفاهيم: الحضارة والثقافة والمجتمع التي تحـــدد مفاهيمهـــا وعلاقتها المتشابكة فيما بينها الهيكل التصوري لهذه المقاربة، فمن خلال القراءة المركزة لكتابات بن نبي في

المحل الأول، وفي محل آخر الأطروحات التي تناولت جوانب من فكره وكذلك الأعمال العامة، يمكن الخروج بالملاحظات التالية والتي تميز فكره وتسمه لغة وأسلوب أعماله:

- إن اهتمام المفكر بانتقاد وتقويم الخطابات الفكرية والأيديولوجية التي شهدها العالمين العربي والإسلامي

- كما أن الإكثار من الاستطراد وإيراد الأمثلة والشواهد من واقع الحياة المعاشة في متن التحليل، بغرض إيصال المعنى وتوضيح المراد إلى قراء لم يألفوا ذلك النوع من الكتابة .

- من هاتين المقدمتين يمكن القول أن لغة الكتابة في أعمال بن نبي غلب عليها أسلوب التبسيط والإحالات المتتابعة، بغرض التبرير والإيضاح لأفكار استعارها من منظومة معرفية في قمة الانفجار، وأعاد ترتيبها وتنظيم علاقاتها وصياغة مفاهيمها محاولا تأسيس مشروع حضاري بديل لمجتمعات مازالت لم تخرج من مرحلة الانبهار (الصدمة الحضارية)، فقد كان ينتقد خطابات النهضة المعاصرة له ويؤسس في الوقت نفسه، في سياق تحليلاته لفكر يخاطب "ذاتنا بعد حضارية"، ويعلق على الأفكار والتصورات والرؤى التي يأخذ بها تعديلا أو تقبلا خاصة عند مناقشة فكرة الدورة الحضارية، كإطار نظري عام لفكره، عند رائدها ابن خلدون والقائلين بها من أمثال توينبي وشيلنجر وغيرهم.

- أولى المفكر أهمية بالغة للقضايا التطبيقية وللمشكلات الواقعية، حيث تضمنت بعض كتبه: "شروط النهضة" و"فكرة الإفريقية الآسيوية"، "فكرة كومنولث إسلامي"، خططا عملية (استراتيجيات) إعادة المجتمعات المتخلفة إلى حضيرة التاريخ، وذلك من شأنه الوقوع في عملية التعميم لقضايا جزئية وآنية.

- إن عملية صياغة المفاهيم وتحديد مضمونها لدى المفكر، سواء المتداولة مثل: الحضارة، الثقافة أو التي استحدثها مثل: القابلية للاستعمار، الأفكار الموضوعة والمصنوعة ...، تنعقد حول الأبعاد التي يرد

الاحتجاج بها أو الأفكار التي يريد تبيانها، بحيث يعمد إلى تعريفات وتشبيهات كثيرة تخدم المعنى العام لما يصبو إلى قوله ولفت الأنظار إليه، وهذا دون أن يولي كبير عناية بصياغة تلك المفاهيم وتحديد القضايا في حد ذاتها، حيث نجد تعاريف كثيرة لمفهوم واحد، ولا نعثر على تعريف واحد لمصطلحات ترد في سياق التعاريف والتحليلات، ومعلوم أن لتلك المفاهيم الفرعية قيمة تفسيرية تشد عضد الفكرة المراد توضيحها، وتمنح متانة للنسق الفكري ككل*.[1]

وبغرض إنزال فكر بن نبي من طبيعته الفكرية العامة، إلى حقل معرفي، أقل عمومية وتجريدا أو أكثر صرامة منهجية، وهو هنا علم الاجتماع*، يتوجب لإقحام مفهوم المجتمع، والذي إن لم يحض بالأهمية الكبيرة لمفهومي الحضارة والثقافة في فكره*، فإن ذلك من شأنه إيجاد المنطق الذي يحكم العلاقة هذه المفاهيم فيما بينها، والذي يؤدي إلى فك رموز فكر بن نبي من جهة، وعزل القضايا الثانوية والاحتفاظ بالرئيسية منها، تمهيدا لصياغة المقاربة البديلة.

أ) مقارنة مفهومي الثقافة والحضارة عند بن نبي:

سبق التنبيه إلى أن أعمال بن نبي تتضمن تعريفات عدة لمفهومي الثقافة والحضارة، وقصد القيام بعملية فرز وتصنيف لطائفة التعاريف الواردة، سنقوم بمقارنة المفهومين من الناحية التركيبية أي من حيث المكونات ثم من حيث علاقة كلا المفهومين بالفرد المكيف، لأنه الوحدة التحليلية للمجتمع كما يرى بن نبي، وهذا للتمكن من ربط المفهومين الأولين بمفهوم المجتمع.

*- ونشير هنا أيضا أن اشتغال المفكر بالصحافة، فبعض فصول كتبه مقالات أعيد إصدارها ومن كتبه ما هو تجميع لمقالات، كما صرح أنه أعاد كتابة بعض فصول كتبه نزولا عند رغبة القراء وعملا بملاحظاتهم إضافة إلى تكوينه التقني، عاملين أثرا على أسلوب كتاباته.
*- يتعين التذكير هنا، وأنا في سياق تناول بديل، أن علم الاجتماع لا يعني بالضرورة السوسيولوجيا، ولحسن الحظ أن ابن خلدون قد أسس هذا المبحث المعرفي.

فمن الناحية التركيبية تعني الثقافة: "التركيب العام لتراكيب جزئية أربعة هي: الأخلاق والجمال والمنطق العلمي والفن الصياغي (التقانة) "،(06)(ص89) أما تفصيل هذه العناصر أو التركيب فهو كالتالي:

- الأخلاق أو المبدأ الأخلاقي "يقوم بالضبط ببناء عالم الأشخاص الذي لا يتصور بدونه عالم الأشياء ولا عالم المفاهيم".(06)(ص70)
- الجمال أو الذوق الجمالي "يطبع الصلات الاجتماعية بطابع خاص، فهو يضفي على الأشياء الصورة التي تتفق مع الحساسية والذوق العام من حيث الألوان والأشكال".(03)(ص72)
- المنطق العملي "يتضمن فكرة الوقت والوسائل البيداغوجية لبث هذه الفكرة في سلوك الفرد، وفي أسلوب حياة المجتمع".(06)(ص74)
- الفن الصناعي أو تالصناع فيرى المفكر بشأنه أنه المكون الثقافي الذي يحدد علاقة المجتمع بالتراب أو الثروات الطبيعية بحيث يكفيه لأغراضه المادية واحتياجاته الإنتاجية والاستهلاكية.(06)(ص121)
- أما الحضارة من الناحية التركيبية دائما فهي "مركب من هذه العناصر الثلاثة الأساسية [الإنسان والوقت والتراب ولابد أن يركبها العامل الأخلاقي ...]".(07)(ص143)

وإذا جئنا للمقارنة، فإن المقاييس الذاتية للثقافة والتي هي "عقائد وتقاليد وأعراف وعادات" (08)(ص54)والمحددة لطبيعة التركيب الثقافي المستمد من المبدأ الأخلاقي والذوق الجمالي، "فأساس كل ثقافة هو بالضرورة تركيب وتأليف لعالم الأشخاص، وهو تأليف يحدث طبقا لمنهج تربوي يأخذ صورة فلسفية أخلاقية". (08)(ص63)أما محددات الفلسفة الأخلاقية ومضمونها فهو ذات العنصر الأخلاقي المحدد لسلوك الفرد والعنصر الجمالي المحدد لأسلوب حياة المجتمع،(08)(ص66) وبالنسبة لمفهوم الحضارة فإن بن نبي يستخدم مصطلحا آخر وهو: "الاتجاه الحضاري = مبدأ الأخلاق + ذوق جمالي"،

(09)(ص108)وتجدر الإشارة هنا إلى أن بن نبي قد عاد واستدرك على نفسه في مؤلف آخر حيث قال: "نبين للقارئ أن الثقافات المختلفة تتفق في ثلاثة عناصر معينة، وقد تختلف بالنسبة إلى العنصر الأخلاقي لاتصاله بالعقيدة".(07)(ص148)

أما مفهوم الثقافة بالنسبة للفرد باعتباره الحامل والناقل لها والمتفاعل مع مكوناتها بها فإنها تعني "مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية، التي تؤثر في الفرد منذ ولادته وتصبح لا شعوريا العلاقة التي تربط سلوكه بأسلوب الحياة في الوسط الذي ولد فيه، فهي هذا التعريف المحيط الذي يشكل فيه الفرد طباعه وشخصيته".(09)(ص73)

يحدد بن نبي في مواضع أخرى علاقة الثقافة بالحضارة، باعتبار الأولى استدمج للفرد المكيف والثانية غاية التاريخ والاجتماع، حيث نجده يقول عن معنى الثقافة في التاريخ أنها: "تلك الكتلة نفسها بما تتضمنه من عادات متجانسة، وعبقريات متقاربة وتقاليد متكاملة، وأذواق متناسبة، وعواطف متشابهة، وبعبارة جامعة: هي كل ما يعطي الحضارة سمتها الخاصة ويحدد قطبيها".(9)(ص77)

ب)- المجتمع كتجسيد لعناصر الثقافة وجوهر الحضارة عند بن نبي:

وإذا كانت الثقافة مندمجة في الذوات والحضارة متماهية مع التاريخ، فإن المجتمع أو بالأحرى "إرادته" التي تضفي على الحضارة صفة الموضوعية، فما هو المجتمع في تصور بن نبي.(10)(ص43)

نعرج أولا على تعريف تركيبي له، يشمل عوالم أربع وهي: عالم الأشخاص وعالم الأفكار وعالم الأشياء، وشبكة العلاقات الاجتماعية،(03)(ص27) أما وحدته فهي الفرد المكيف أو المشروط، (10)(ص87)ومصطلح المجتمع كما سبق تناوله، لا يطلق إلا على المجتمع الذي ينتمي إلى حضارة ويكيف أفراده مع العالم المحيط بهم بواسطة ثقافة، أو المجتمع التاريخي على وجه الدقة، وهو جماعة إنسانية "تغير دائما

خصائصها الاجتماعية بإنتاج وسائل التغيير مع علمها بالهدف الذي تسعى إليه من وراء هذا التغيير"،(10)(ص17) والمجتمع على هذا أقرب منه إلى آلة أو جهاز إنساني وهو بالفعل كذلك حسب بن نبي فهو "جهاز التحويل الذي يحول الطاقات الاجتماعية إلى نتائج مختلفة"، (11)(ص59)والمجتمع إذن هو الشكل الواقعي للحضارة في شتى مظاهر الوجود الإنساني.

ونأتي هنا على إماطة اللثام عن العلاقات المتعدية التي تربط مفاهيم المجتمع والحضارة والثقافة في تصور بن نبي:

الحضارة "في جوهرها عبارة عن مجموع القيم الثقافية المحققة"، (08)(ص101)ومن جهة أخرى فإن كل "واقع اجتماعي في جذوره هو قيمة ثقافية معينة محققة في واقع الإنسان". (07)(ص144)فالحضارة صيرورة تاريخية كلية يحققها المجتمع بواسطة أفراده المتشبعون بثقافة، يعكسون قيمها في ذلك الواقع الاجتماعي.

ج)– الثقافة مفهوم وسيط بين الواقع الاجتماعي والمرحلة الحضارية:

إذ ما تقصينا مفهوم المجتمع المركب من عوالم: الأشخاص والأفكار والأشياء، فإن شبكة العلاقات الاجتماعية هي الفاعل الحقيقي في تشكل المجتمع وربط أجزائه واستمرار علاقاتها فيما بينها لأداء دورها التاريخي وهذا الدور ما هو في الحقيقة إلا الحضارة، ويقرر بن نبي بصفة عامة "أن كل ما يكون صلة من أي نوع في نطاق العوالم الثلاثة: عوالم الأشخاص والأفكار والأشياء أو بينهما، هو في الحقيقة علاقة مشروطة بوجود ثقافة، وبالتالي جميع أشكال الاتصال الفكري كالفن أو اللغة – من باب أولى – علاقة اجتماعية"، (03)(ص33)وقد سلم قبل ذلك "أن جميع العلاقات السائدة بين الناس تعد علاقات ثقافية،

أعني أنها خاضعة لأصول ثقافية معينة"،(07)(ص32) وذلك يعني أن هذا الواقع الاجتماعي وناتجه الحضاري سواء كان ماديا أو فكريا مدين لمضمون ثقافي سابق.

يتبين إذن أن بن نبي يوظف مفهوم الثقافة، على الأرجح، بمعنى بنية ذهنية (رمزية) يتبناها الفرد، الذي يتفاعل في رقعة اجتماعية محددة، ولكنها مرتبطة أشد الارتباط بتاريخ ولعل هذا ما حدا به إلى توظيف مصطلح المعادلة الاجتماعية في موضع آخر، لتفسير مبتغاه، والتي يقول بصددها: "أن تصرف الفرد مقيد بشروط اجتماعية سبقته إلى الوجود، وبالتالي إن فعاليته مشروطة بمعادلة اجتماعية يجدها في مهده، وهي تفرض على سلوكه نوعا من الحتمية لا يتخلص منه إلا بعملية تغيير لمعادلته الاجتماعية ...". (11)(ص93)

ومما سبق يمكن استنتاج العلاقة بين مفاهيم: الحضارة، المجتمع، الثقافة، على النحو التالي: استعمل بن نبي مفهوم الثقافة لربط المستويين التاريخي والواقعي، الحضاري والاجتماعي، ولهذا فإنه رفض التعريفات الوظيفية المتداولة، والتي تعزل كلية البعد التاريخي، ولكنه أخذ بشكلها وأضفى عليها مضمونا وسيطا بين الحضارة والمجتمع، وأن صبغة الفعالية ومهمة التغيير التي أناطها بالثقافة تنم على مركزية مفهوم الثقافة في مشروعه الفكري.

د)- مقولة الحضارة كغاية للتغيير الاجتماعي:

وإذا كانت مقولة الثقافة مركز مشروع بن نبي الأيديولوجي وأداته، فإن مقولة الحضارة هدفه وغايته، وإذا كنا في هذا البحث لا نناقش فطر بن نبي في شقه المذهبي، أو على الأقل فإنه ليس هدفه المباشر، فإن معرفة هذا الأمر يمكننا من إيجاد رابط موضوعي يحدد لنا العلاقة بين المفاهيم التي استعملها بن نبي والقضايا التي طرحها، والمنهج الذي اتبعه في الاستدلال والتبرير على مجمل فكره وآرائه.

فالحضارة بالمفهوم الشائع، هي حضارة الغرب المتفوق معرفيا ومجتمعاته تقدم "الضمانات الاجتماعية" اللازمة لفعالية أفكارها، دون صحتها بالضرورة، واستثمار مواردها الزمنية والنفسية والمادية، أي الوقت، الإنسان، التراب، على التوالي، والدليل على تأثر بن نبي بنموذج الحضارة الغربية هو تركيزه على مفهوم العلم وعملية اكتسابه "التعلم" للتفريق بين الحضارة والثقافة، أو للربط بينهما، إذ "... الثقافة نظرية في السلوك أكثر من أن تكون نظرية في المعرفة، وبهذا يمكن أن يقاس الفرق الضروري بين الثقافة والتعلم".(03)(ص96)

والعلم بن نبي، حسب فهمي له، هو الثورة المعرفية المنجزة في الغرب، والتي استلم مشعلها من عند المسلمين، ونواتجه التطبيقية اللاحقة، يعني منهج التفكير الديكارتي، والذي حاوره بن نبي في مواقف عدة، المجسد في العلم التجريبي المعاصر والثورة الصناعية الأوروبية وموجاتها المتلاحقة، وإذ كان العلم لا يعني بالضرورة المنطق العملي والفن الصناعي، فإن ذلك تجسيد له حسبما يضيفه المبدأ الأخلاقي والذوق الجمالي من "قيمة ثقافية" أو "اتجاه حضاري" في الواقع الاجتماعي أو الناتج الحضاري المتجسد. فالعلم تراكمي وحيادي، تراكمي لأنه جهد إنساني وحيادي لأنه يحدد علاقتنا بعالم الأشياء على مدار تاريخ الإنسانية.

ويتضح هذا الطرح من خلال الفقرة التالية، التي يناقش فيها بن نبي علاقة الثقافة بالعلم في ضوء الحضارة حيث يقول: "... تختلف الثقافة في جوهرها عن العلم: الثقافة ليست سوى تعلم الحضارة، أعني استخدام ملكاتنا الضميرية والعقلية في عالم الأشخاص، ليس العلم سوى بعض نتائج الحضارة، أي أنه مجرد جهد تبذله عقولنا في استخدام عالم الأشياء [...] الأولى تخلق علاقات بيننا وبين النظام الإنساني، والآخر يخلق علاقات بيننا وبين نظام الأشياء"،(03)(ص96) وإذا كانت العبارات التي يستخدمها بن نبي في هذه المقارنة تبدو هادئة وبعيدة عن النزعة العلمية، فإن طبيعة المقارنة ذاتها بين العلم والثقافة في ضوء الحضارة، يحدد بجلاء القيمة التي يعطيها المفكر لهذه المفاهيم في تصوراته، كما أن عالم الأشياء الذي يبقى مفهوما

مبهما، كنا نمر عليه مرور الكرام، يعد من المفاهيم الثانوية التي لم يوضحها بن نبي، ويحق لنا أن نسأل هنا: هل الأشياء هي أيضا موضوع العلوم الاجتماعية، مثل البنى والأجهزة الاجتماعية في حالة علم الاجتماع؟ وبالتالي هل العلوم الاجتماعية – بوصفها علما – ينطبق عليها الحياد؟ أم أن نموذج الحضارة الغربية المروج لهذه المقولة، حسب التوجه الغالب، سوغ هذا المذهب؟ وريثما نبلور المقاربة السوسيولوجية لبن نبي سنتريث الإجابة عن هذه الأسئلة ونتركها إلى حينها.

3- موازنة بين مقاربة بن نبي والتراث السوسيولوجي المعاصر:

أساس هذه الموازنة فهو الدمج الذي قام به بن نبي بين التحليل البنيوي والاتجاه الوظيفي كمنهجية تفسير، ولقد قدم المفكر تصوره العام في تفسير الأزمة الثقافية، في مستوييه الاجتماعي العام والفردي المتعين، فيما أسماه "تفكك شبكة العلاقات الاجتماعية" الرابط بين المستويين، وإذا أمعنا النظر في هذه المقولة فإنها تتركب من مفهومين: "شبكة العلاقات الاجتماعية" وهو مفهوم مستعار من التحليل البنيوي، و"التفكك" وهو بالمعنى الذي يستعمله بن نبي يقترب كثيرا من الاتجاه الوظيفي في علم الاجتماع، ولنا أن نعقد مقارنة لتوضيح ذلك، فمن تعريفات التفكك الاجتماعي تعريف روبرت ميرتون في كتابه المشترك "علم اجتماع المشكلات الاجتماعية" حيث يعتبره "عدم قدرة النظام الاجتماعي على التضامن مع الأفراد والجماعات في حفظ وتحقيق أهدافهم التي يرغبونها، هذا ومفهوم التفكك الاجتماعي نسبي، فعندما نقول أن مجتمعا من الأفراد أو منظمة أو مجتمعا محليا أو المجتمع الكبير مفكك، فمعنى ذلك أن الأفراد الذين يشغلون مواقع معينة في البناء الاجتماعي لا يقومون بأدوارهم كما يجب لتحقيق أهداف التنظيم" (12)(ص261)، وهذا التحديد يتفق في شقيه مع المفهومين اللذين صكهما مالك بن نبي وهما: "الضمانات الاجتماعية" (عدم قدرة النظام الاجتماعي ...) و"المبررات" (الأفراد لا يقومون بأدوارهم ...)، ولكن تفسير بن نبي يتعين في البعد التاريخي للمجتمع (النظام) أي في مرحلة الحضارة التي يمر بها،

فعن الضمانات يشرح بن نبي وجهة نظره في قوله: "... المتاعب التي تهاجم الفرد والمصاعب التي تعترضه في الطريق ليس مصدرها تكوينه الخاص ولكن صلته بمجتمع معين، فالمجتمع المتحضر يكفل الضمانات للفرد مهما كانت قيمته، والمجتمع المتأخر لا يقدم الضمانات ولا يمكنه تقديمها لأن الحياة تتكامل ككل ..." ،(03)(ص25) أما عن المبررات الاجتماعية (القيم والمعايير) ودورها في الأزمة أو التفكك فيقول: "العلاقات الاجتماعية تكون فاسدة عندما تصاب الذوات بالتضخم فيصبح العمل الجماعي المشترك صعبا أو مستحيلا".(03)(ص43)

وإذا كان بن نبي استعمل التحليل النبوي استعمالا أداتيا، كما هي السمة البارزة في منهجية صياغته للمفاهيم وتحديد العلاقات النظرية، فإنه يضفي على عملية تفكك العلاقات بعد قيامها، وهو مركز تفكيره (الفكرة الدينية)، حيث يعقد للقيم والمعايير (المبدأ الأخلاقي والذوق الجمالي) الأهمية القصوى في تفسيره للأزمة الاجتماعية، وكذلك الأمر بالنسبة للاتجاه الوظيفي عموما، إلا أن بن نبي ينأى بنفسه، مرة أخرى، عن النزعة الوضعية بتقسيمه لعالم الأفكار إلى: أفكار مطبوعة (الفكرة الدينية السوية) وأفكار مصنوعة (الأفكار العملية المنسوجة على مثلها)، وبهذا يخرج من مأزق الثنائية القيم المطلقة/النسبية كما هو الحال في المذاهب الفلسفية الوضعية (المثالية والبراغماتية)، ومع ذلك فإن هذه الطريقة الذكية في مزاوجة المقدس والعملي من القيم في تفسير مظاهر الحياة الاجتماعية لا تسهل الدراسات التطبيقية، إذ أن بن نبي لم يفصل في نوع العلاقة أو العلاقات التي تربط بين الأفكار المطبوعة والأفكار المصنوعة بشكل منهجي مناسب إلا في مثاله "أسطوانة التسجيل"، ونجد بعد ذلك في تحليلاته لتشخيص مظاهر الأزمة أنه قد تعثر في ربط طغيان عالم الأشياء وعالم الأشخاص على العالم الثقافي ثم بطغيان الأفكار بعد ذلك على الصفوة في المجتمع (مرض النخبة)، وأظن أن هذا الخلل يعود بالدرجة الأولى إلى المنهجية الوضعية التي تسم العلوم الاجتماعية، والتي تبناها المفكر في بعض الأحيان دون النقد الكافي الذي يعريها من افتراضاتها الخلفية.

ومهما كان أمر هذه الموازنة، إذ لا تقيم دليلا قاطعا على القضية الأخيرة، فإنها تقدم افتراضا مقبـــول لفحص نوعية "المنهجية التي يلجأ إليها بن نبي في الغالب استدلالا أو تبريرا".

المراجع المعتمدة:

01- المعجم النقدي لعلم الاجتماع، ترجمة سليم حداد، ديوان المطبوعـــات الجامعيـــة، الجزائـــر، ط1، 1986.

02- ريمون بودون: مناهج علم الاجتماع، ترجمة هالة شبون الحاج، منشورات عويـــدات، بـــيروت – باريس، ط3، 1982.
03- مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، الجزائر، 1986.
04- مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ترجمة: بسام بركة وأحمد شـــعبو، دار الفكـــر، الجزائر، 1992.
05- مالك بن نبي: شروط النهضة، ترجمة: عمر مسقاوي وعبد الصبور شاهين، دار الفكـــر، الجزائـــر، 1987.
06- مالك بن نبي: القضايا الكبرى، دار الفكر، الجزائر، 1991.
07- مالك بن نبي: تأملات، دار الفكر، لبنان، 1979.
08- مالك بن نبي: فكرة الإفريقية الآسيوية، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، الجزائر، 1992.
09- مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، الجزائر، 1984.
10- مالك بن نبي: شروط النهضة، ترجمة: عمر مسقاوي وعبد الصبور شاهين، دار الفكر، الجزائر، 1987.
11- مالك بن نبي: المسلم في عالم الاقتصاد، دار الفكر، الجزائر، 1987.
12- عدلي أبو طاحون: في التغيير الاجتماعي، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، 1997.